

الذات الغربية من إنسدادات الوعي إلى فتوحات الغيرية (إنهيار السرديات الفائقة)

**The Western Self from Consciousness Blockages to Conquests of Altruism  
(The Collapse of Super Narrative)**

فطيمة معافة

Fatima MAAFA

1 جامعة الحاج لخضر باتنة 1 (الجزائر)، [Fatima.Maafa@univ-batna.dz](mailto:Fatima.Maafa@univ-batna.dz)

تاريخ النشر: 2024/05/16

تاريخ القبول: 2023/10/12

تاريخ الاستلام: 2023/04/05

**الملخص:** تتمحور هذه الدراسة حول تمركز الذات في الفكر الغربي، والتي تعرضت لأزمات عمقت جروحها الذاتية منزقة بذلك إلى مأزق الزيف والوهم والخرافة، هذه الذات الغربية التي كثيرا ما أعتبرت فلسفة وثوقية، بعدما أعلنت عن هويتها الواعية كحدث عقلائي رسخته تلك الرؤية الذاتية الديكارتية العارفة أنطولوجيا، فترتب عن ذلك تحيز كلاسيكي قوامه التمرکز حول الذات التي أنكرت كل الغيريات والذوات المختلفة، كان ذلك سببا وراء سطوع ابستميا المركزية الغربية التي إنصرت لانا في مقابل إدانة الاخر ونسيان وجوده المختلف، إلا أن هذه الذات وتقاليد الكلاسيكية، أصبحت مهددة بالزوال في الخطاب الغربي المعاصر، من خلال تلك الرجاء العنيفة والتأويلات الارتياحية التي مست أساسها المطلق، والتي سعت الى تفجير وخلخلة حضورها المتعالي، لإبراز الدينامية داخل هذا الحضور الاحادي الثابت المنغلق على ذاته، من أجل الانفتاح على كل ما هو متعدد ومختلف.

**كلمات مفتاحية:** الذات الكلاسيكية؛ أزمات فلسفات الوعي؛ موت الذات؛ الغيرية؛ الآخر.

**Abstract**

This study revolves around the centering of the self in Western thought, which has been subjected to crises that deepened its self-inflicted wounds, thus slipping into the dilemma of falsehood, illusion and myth. This is a classic bias based on self-centeredness that denied all the different altruists and different selves, and this was the reason behind the brightness of Western central epistemism that triumphed for the ego in exchange for condemning the other and forgetting his different existence. Through those violent vibrations and suspicious interpretations that touched its absolute foundation, and which sought to explode and disrupt its transcendent presence, to highlight the dynamism within this unilateral presence that is fixed and closed to itself, in order to open up to everything that is multiple and different.

**Keywords:** the classic self; crises of consciousness philosophies; the death of the self; altruism; the other)

المؤلف المرسل: فطيمة معافة، الإيميل: [maafafatima324@gmail.com](mailto:maafafatima324@gmail.com)

## 1. مقدمة:

من المتعارف عليه أن البعث الجديد للغرب الحديث وولادته الرمزية قد إقترنت رسميا بشيوع النظر العقلاني الممنهج داخل الارث الثقافي الغربي، والذي أندر بعصرنة حديثة النشأة والتكون احتضنت طرائق تفكير وأساليب عيش مغايرة تماما لسلطة السائد وخطاب المتوارث، هي طرائق تحتكم لمنطق النهج العلمي المعقلن الصارم، والتي إنسلخت باعتبارها أسنة اقتدار عن عقيدة الخرافات وأساطير النزعة اللاهوتية وفقهها الظلامي الذي هيمن على العقول بفكره المؤدلج الفاسد طيلة الفترة الوسيطة، فقد ظلت تثبت سمومها اللاعقلانية واللاعلمية في الحياة البشرية ما حال بينها وبين الانفتاح على نورانية العلم والعقل، الا أن هذه النزعة المتمتمة قد إختمرت في ثناياها اللاهوتية أزمت، مهدت لفعل انهيارها، ما أدى إلى إحداث فجوة في التاريخ الاوروبي بين القديم الذي تلاشى عهده، وبين الحديث الذي ملأه الشغف للاعلان عن ولادة هويته في ثوبها الجديد، ليكون ذلك بمثابة الافصاح عن إعتاق الوعي الغربي عن كل سلطة قيده و حجب عنه آفاق التأمل الحر، وكان من تبعات ذلك أن أصبحت الحداثة الغربية لحظة تدشين لعصر تكتسحه العقلانية بامتياز، من خلال احتكامها لسلطة اللوغوس واردة الواعية، بعدما كانت خاضعة لارادة اللاهوت المسيحي غارقة في رواسبه الدينية، أدى ذلك الى ظهور الغرب الحديث المنفصل عن العصر الوسيط، فكان ذلك بمثابة طفرة نوعية انتصرت لارادة الذات الغربية الحديثة، من خلال اعادة الاعتبار لقيمتها العقلانية، لما لها من فضل في ترسيخ اسس ومبادئ العقل والمنطق، وعلى هذا الاساس العقلاني قامت الفلسفات الحديثة كفلسفات رائدة للعقلانية في كل صورها، الا ان هذه الفلسفات التي احدثت القطيعة مع الغائية الدينية، والتي مهدت لانتصارها الضرورة التاريخية، قد جعلت الذات الغربية سجينه الوعي المتعالي وخطابه الاحادي المتمركز حول ذاتيته المتعالية، هذا التحيز الكلاسيكي الذي استغرق في انتاج مركزيات ذاتية في مقابل اعادة انتاج هامشية الاخر، ادى الى بروز خطابات فلسفية معاصرة متنوعة توحدت حول تفكيك هذا المتمركز الذاتي، ومن خلال هذا التمهيد الموجز يتسنى لنا طرح الاشكالية التالية: هل إستطاعت خطابات ما بعد الحداثة التي حملت في ثناياها فكر الاختلاف والغيرية خلخلت وزعزعة أركان الذاتية والمعقولة؟، ولقد إنجست عن هذه الاشكالية الرئيسية لموضوع بحثنا جملة من الاشكاليات الفرعية أبرزها:

- إذا كانت الفلسفة الحديثة قد تأسست معالمها الذاتية بكل وضوح وبرزت مع اللحظة الديكارترية، كخطوة واثقة لكل نسق فلسفي و يقين أول ثابت في الفكر الفلسفي انبثق من ذات الفكر، فهل ادى ذلك الى انتاج مركزيات غريبة وتحيزات فكرية، انتصرت لارادة الذات على حساب تهميش وتغييب وجود الذوات الغيرية المختلفة عن الانية في الثقافة الغربية؟

- هل إستطاعت الفلسفات الغربية المعاصرة على اختلافها والتي توحدت حول نقض الاساس المطلق لفلسفات الوعي الكاذبة، تحقيق التجاوز الفعلي لترسبات الفهم التقليدي، والاعلان صراحة عن نهاية الانساق الفلسفية المطلقة، وتطهيرها من كل يقين ومركز ثابت يمنحها النظام والمعقولية؟

أما عن أبرز فرضيات هذه الدراسة وأهدافها فتتمثل في الكشف عن تلك التصدعات العميقة التي خلفتها تلك القراءات الفلسفية المعاصرة وتأويلاتها الارتيايية، التي تنبأت مسبقا بانهيار فلسفات الكوجيتو الكاذبة، فكل ما قام به اساتذة الشك والارتياي، يندرج ضمن اطار بعث تأويلات ارتيايية حاولت الكشف عن الشرح المعرفي والتصدع الابستمولوجي داخل مقولة الذات، وهي بذلك خلفت جروحا عنيفة وعميقة، مزقت وثوقية فلسفات الذات، حينما اظهرت ان هذه الذات ماهي الا حفرة من حفريات الماضي، ووهم من الاوهام التي اخترعتها الهيومانية الغربية ليس لها أي وجود حقيقي، لتعمق بهذه القراءات الشكية جروح فلسفات الكوجيتو التي انهارت بفعل انهيار اساسها المطلق - اللوغوس-، أما عن المنهج الذي اعتمدنا آلياته في هذا العرض، فهو المنهج التحليلي لما اقتضته طبيعة الموضوع، وذلك من أجل تحليل القراءات الغربية المعاصرة وخطاباتها الشكية التي زعزت الوثن الغربي الاكبر "العقل" وازاحته عن المركز لتتفتح بذلك على عالم الغيريات، وتحقق بذلك التجاوز الفعلي لوثن النسقية الذاتية الى رحابة الغيرية.

## 2. فلسفة النسق وتمركز الذات

### 1.2 التماهي الجدلي بين الذات الديكارتية والأنا المفكرة

كثيرا ما يعرف الفيلسوف الفرنسي العقلائي "رونبيه ديكارت" **Rene Dexartes** بأب الفلسفة الحديثة، والمؤسس الشرعي للذاتية الغربية، ذلك أن الذاتية الأوروبية التي اعاد لها ديكارت الاعتبار كنزوع إنساني لا تغشى بصائره الواعية أكاذيب دامت لمئات السنين، قد شكلت في مطلقها عتبة الحداثة الفلسفية، بعد كل تلك المحاولات الردعية التي قامت بها المذاهب الدينية التي ترأسها سلطة الكنيسة، وما إستتبع ذلك من ممارسات قمعية من ضغط وإكراه ووصاية على الحياه الفكرية للذوات، الامر الذي أنتج ذواتا قاصرة لا تمتلك أدنى حق لتوجيه حياتها نحو الأفضل، ولا تحوز على أدنى الخصائص للتأمل والتدبر في قضايا الفكر والعالم، أدت هذه الأساليب الاكراهية الى فعل تجريدها من ثوب النظر العقلائي، وإلباسها رداء الجهالة والخافة، ما ولد في نفوسها هاجس الخرافة والاساطير، التي كيفها الفكر السكولائي حسب مفاصله الذاتي وتطلعاته المشبعة بالجشع والطمع، وسخرها لصالحه ومصالحه الشخصية على حساب حق الشعوب، إلا أن هذا العهد من القصور قد ولى الأدبار، مع فيلسوف العقلائية المحضة "ديكارت" الذي أعلن تمرده على المتوارث

رادا الاعتبار للذات العاقلة بعد رحلة طويلة من الاغتراب عن هويتها الواعية، إلى جانب كل تلك المساهمات العلمية التي سبقت ديكرت والتي تضافرت مساعيها الفكرية لفصح تناقضات وفساد الفكر الديني وترسيخ مبادئ الممارسة العقلانية المجردة من شوائب الايديولوجيات، وبالتالي كانت محاولات ممهدة لعصر حديث المعالم تكتسحه الجدية في طرح القضايا والتعامل معها، يقول هيجل في هذا الصدد: "ان ديكرت هو مؤسس الفلسفة الحديثة، انه بطل لأنه استطاع ان يعود بالأشياء الى بداياتها، وعاود البحث على ارضية الفلسفة حتى استعادها بعد ضياع استمر ألف سنة" (عبد الوهاب، 2003، صفحة 14)، وهو ما يلخص روح العقلانية الديكرتية ومنهجيتها الصارمة، التي اتخذت من الشك مسعى فلسفي لبلوغ الحق واليقين المعرفي عن طريق الذات العارفة انطولوجيا، لا الشك من أجل ذاته بل الشك الذي يمهّد لبناء صرح معارف يقينية واضحة بذاتها، ذلك أن الذات هي السبيل الوحيد الذي يمكننا من بلوغ الحق الفلسفي لما تحوز عليه من خاصية التأمل العقلي واعادة النظر في القضايا المطروحة أمامها، وذلك ما أردفه ديكرت من خلال قوله: "اذا اردنا ان نفرغ لدراسة الفلسفة دراسة جدية والبحث عن جميع الحقائق(...)" (عبدالله، 1997، صفحة 17) فديكرت يؤكد بموجب قوله هذا على ضرورة والزامية التخلص من كل شوائب ورواسب المعرفة التقليدية العالقة بالذهن وأحكامها البالية، وهي أحكام تم تحصيلها عن طريق النقل المتوارث من غير نقد أو نظر أو تمحيص يمكن أن يكون معيارا لقياس مدى صحة هذه الأفكار، التي تم اعتبارها منظومة من الحقائق الراسخة وهو ما يجعلها تتأى عن كافة شكليات الحس النقدي، وان دل ذلك على شيء انما يدل على رفض ديكرت القطعي لأي فكرة يمكن اعتبارها صادقة وحقيقة ما لم تخضع لمحك المراجعة والنقد الصارمين، وهذه المهمة حسب ديكرت لا يمكن النهوض بها ولا التطلع اليها الا " اذا اعيدت الاشياء الى بداياتها واصولها، اذ ينبغي اولا البرهنة على ان الذات الانسانية جوهر مفكر، ثم البرهنة على ان الله خالقها، ثم اثبات وجود العالم وادراكه

ثالثا" (عبدالله، 1997، صفحة 71)، وبالتالي لا يمكن إطلاقا النهوض بأي مهمة جادة في تقصي الحقائق واليقينيات مالم يتوفر للذات شرطها العاقل، وبعدها الاستقلالي الذي ينأى عن أي محاولة للتأثر السلبي من طرف سلطة خارجية أي كانت صفتها، سواء أكانت علمية أو لاهوتية، إن القول بالجوهر العاقل من المنظور الديكرتي هو إفصاح صريح بأن هذا الجوهر يتميز بألية وخاصية العقلانية وجل تمظهراتها بما في ذلك القدرة والاستطاعة على ممارسة الشك، فالشك كمسعى فلسفي حثيث لتحصيل المعارف اليقينية الصادقة بذاتها، إنبتق

مع اللحظة الديكارتية من ذات الفكر، ولذلك نال الشك منزلة هامة في النسقية الديكارتية، وفي ذلك تؤكد المختصة الشهيرة في الدراسات الديكارتية "جنيف روديس لويس"، أهمية الشك داخل النسق الديكارتية والذي إعتبرته شرط ضروري للوصول إلى الحقيقة، في حين إعتبرته "يدوكس" بمثابة الفطرة السليمة لبلوغ الحقيقة الفلسفية، قائلة: "...ذهبت تأملات ديكارت في اتجاهين: الاول هو تبرير ميتافيزيقي لقدرتنا على الحكم الصحيح، والثاني تفسير الاستعمال السيئ لهذه القدرة، مؤملا الوصول الى تحديد الوسائل التي تقبنا الوقوع في الزلل (رونبيه، الصفحات 39-42)، فمما لا شك فيه أن الشك الديكارتية هو شك منهجي يحتكم لقواعد وآليات ذهنية منطقية، تتسم بالتسلسل والترابط السليم الذي يفضي في نهاية الامر الى الحكم الصادق لا الكاذب، وبالتالي كان جل اهتمامه هو البحث في الفكر الانساني لاستخلاص جملة من الوسائل الفكرية التي تقي الفكر من الوقوع في مأزق الوهم والخرافة، فلقد كان "مطمح ديكارت هو اولا ان ينفذ ببصره في وضوح الى افعاله، وان يمضي في هذه الحياة مشية الواثق" (فؤاد، دون سنة، صفحة 5) ذلك ما كان يشكل المبرر الفلسفي الذي حرك ديكارت لتقصي الحقائق، لان امكانية الخداع والتضليل والصرع عن كل ما هو حق كامن في كل شيء، ولما كان بلوغ الحقيقة يشكل هدفا لديكارت لا غبار عليه، كان له ان جعل من اليقين الرياضي دعامة أساسية لأبحاثه الفلسفية، فالروح الرياضية في تقصي الحقائق كانت غالبية على النسق العقلي الديكارتية، لما تتميز به من تناسق ونظام وترابط يفضي الى النتائج اليقينية، لذلك "حاول ديكارت اقامة علم رياضي جامع من حيث ان لهذا العلم رسالة فلسفية، (...) وهذا ما يدل عليه عنوان كتابه المقال في المنهج لاحكام قيادة العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم" (رونبيه، 1988، صفحة 10) وفي التأمل الثاني ينصرف ديكارت الى اثبات الذات المفكرة باعتبارها الشيء الوحيد الذي يمكن اثباته، باعتبار إن آلية الشك لا تتفصل عن الذات التي تمارسه، فالذات موجودة مادامت تفكر،... ويختتم ديكارت تأمله من خلال قوله: "انني ارى بوضوح انه ما من شيء هو عندي ايسر واوضح من معرفة نفسي، تلك اذن حقيقة مؤكدة واضحة متميزة خرجت لي من

ذات الفكر، لها ميزة نادرة هي أنني أدرك فيها الوجود والفكر متحدتين، إتحادا لا ينفصم" (كامل، 1993، صفحة 29) ووفقا لذلك كان إنبثاق فلسفة الكوجيتو كما تصورها ديكارت من ذات الفكر، مبدأ ثابتا في الفلسفة ومصدرا يقينيا لكل الحقائق الابستيمولوجية، فهي يقين جلي وواضح وبديهي مادامت قد خضعت لمحك الشك، ليتم إخراجها وصناعتها من جديد وفقا لمقياس الريبة، ذلك ما جعل من الذات الديكارتية كخطوة فلسفية يقينية مبدأ صلبا في خضم الفلسفات الغربية، ومعيارا ثابتا ومرجعا كليا للقيم الغربية في مختلف صورها.

## 2.2 "كانط" Emmanuel Kant والميتافيزيقا النقدية

لعل ما يتهاافت على الفكر دون شك عندما نكون بصدد ذكر الفيلسوف الألماني ايمانويل كانط، هو رؤيته ونزوعه النقدي الذي إعتلى وترأس نسقته الفلسفية، ففي الوقت الذي مضى فيه ديكرت للتأكيد على ذاتية المعارف الانسانية وفقا للنموذج العقلاني، كبراديجم وايدول مثالي لليقين الفلسفي، في مقابل هذا النهج العقلاني اليقيني، قام بالشك في كافة المعارف التي تم تحصيلها عن طريق الحس على إعتبار أن هذا الأخير مجرد إدراك غامض ومخادع، لا يؤدي بنا الى سكة المعرفة الحقيقية، في حين نجد الفيلسوف التجريبي الانجليزي "جون لوك" يعيد الاعتبار للتجربة الحسية كمصدر للمعرفة ليرد بذلك على النزعة العقلية التي تزعمها ديكرت والتي إحتكر تقليدها الغربي المعرفة لمحض الشعور على حساب وقائعية التجارب، ليكون لفيلسوف النزعة التوفيقية في هذه الاحداث المتضاربة قولاً فصلاً في ذلك، محاولاً التأليف بين كلا المذهبين المتنازعين، فمن المؤكد ان كانط قد استبقى هذين الجانبين في فلسفته النقدية، التي عملت على تقييد الذهن بحدود القوة الحاسة والتجربة واخضعت العقل باعتباره مكلة انتاج المعرفة للمساءلة النقدية من جهة، واستبقت على الذات المتعالية باعتبارها تحوز على القواعد الكلية المحضة التي تساهم في تأليف المعارف وفي اماكن قيام التجارب الحسية من جهة أخرى، "صحيح أن كانط قد قدم لنا عقلانية جديدة مغايرة لكل من عقلانية ديكرت من جهة، وعقلانية ليننتز من جهة اخرى، الا ان العقلانية الكانطية قد بقيت مع ذلك عقلانية ترنسندننتالية، تؤمن بالعلم والواقعية التجريبية من جهة، وتحرص على تأكيد الاخلاق من جهة اخرى" (ايمانويل، دون سنة، صفحة 6) ، فكانت سعى إلى خلق ميتافيزيقا حديثة الولادة تكون مغايرة تماماً لتلك الميتافيزيقا التي كانت سائدة في عصره، والتي استبصر فيها أسباب العجز والقصور لتحقيق أسباب التقدم والتطور التي حققها العلم في عصره، فهي علم جامد في مكانه لا يتقدم ولا يتأخر، ولذلك تبني كانط توجه

ميتافيزيقي مزدوج المعالم، هي أشبه ما تكون ببيتقة ميتافيزيقية جمعت بين الانثروبولوجيا العملية - ميتافيزيقا الطبيعة - من جهة وبين ميتافيزيقا الاخلاق من جهة أخرى، فمن المؤكد أن فلسفته اتخذت من العقلانية صورة جديدة أسست للعلم من جانب، ومن جانب آخر للأخلاقيات كتوجه عقلائي خالص، ولقد توجهت عقلانية كانط المتعالية الى غاية واحدة والتي تمثلت في ربط التساؤل الفلسفي بمشكلة أساسية، هي مشكلة اماكن قيام المعارف الانسانية، يقول كانط في هذا الصدد: "واريد ان اصرف النظر عن كل ذلك، لأرى الى النقد في ذاته، في ما جعله ممكناً كقول فلسفي بامتياز، أعني كقول بادىء وغني بذاته، وارى ان هذه البدئية قد صارت ممكنة مع افتتاح حقل جديد للقول، هو حقل شروط الامكان، وتعيين موضوع جديد للبحث، هو لا(طبيعة الاشياء التي لا

تستنفذ) بل العقل من حيث هو القدرة على المعرفة القبلية وحسب" (عثمان، 1967، صفحة 60)، وبالتالي إتخذ كانط من العقل الذي كان مقياسا للحقائق كافة، ومحكمة عليا تحتكم إليها جميع القضايا الفلسفية، مجالاً للنقد والمساءلة الفلسفية لرسم حدوده ومعرفة إمكاناته، وتخليصه من كافة الأوهام والضلالات التي كان يحملها هذا العقل في جوفه، وذلك من أجل انشاء معرفة نقدية صارمة، وهنا يكون العقل موضوع ذاته، فلم يعد العقل مع كانط يحوز على تلك الخاصية والمزايا التي تم منحه اياها طيلة الأزمنة الحديثة، لم يصبح ذلك اليقين الذي لا يمكن أن يخضع لأي تساؤل أو نقد، فالعقل الكانطي لا بد أن يسائل ذاته، وينتقد نفسه، ويحدد إمكاناته كآليات لانتاج المعرفة، انه عقل يمكن له ان يدرك المعارف المختلفة، كما أنه عقل يعسر عليه ادراك معارف أخرى تفوق طاقاته وإمكاناته، "فقد العقل الخالص هو امتحان لقيمة العقل ذاته، من حيث إستعماله النظري الذي يتوخى الحقيقة غاية له" (عثمان، 1967، صفحة 60) وفي ظل هذه الاحداث النقدية اكتست الفلسفة الكانطية سمة النقد، ما جعل المؤرخين لمذهبه يطلقون عليه اسم المذهب النقدي، وان كان هو الآخر قد وصف عصره بأنه عصر النقدية بامتياز وهي عصرنة يجب ان يخضع لها كل شيء بما في ذلك جل الخطابات الدغماتية التي تزعم المطلقية، ومن مبادئ وأساسيات هذا النقد في الفلسفة الكانطية يتم استخلاص الشروط الضرورية والكلية التي يقوم عليها كل علم، وكل معرفة سليمة، لكن على الرغم من اخضاع كانط العقل لمحك النقد الا أنه لم يستطع تجاوز حدوده الذاتية، وخير مثال عن ذلك قوله بالقولب والاحكام القبلية التي تمثل مقولات العقل النظري، والتي تنتظم وفقا لشروطها الكلي والخالص التجربة الحسية.

### 3.2 فريديريك هيجل "Friedrich Hegel" والمثالية المطلقة ( فلسفة الروح المطلق)

يعتبر الفيلسوف الألماني المثالي "فريديريك هيجل" الانا المطلقة البداية الواثقة لكل نسق فلسفي ينشذ الحقيقة الفلسفية، وفي ذلك نجد المبرر الفلسفي في اعتبار فلسفة هيجل مثالية تأملية مطلقة، لأنها تعتمد في جوهرها على فكرة الروح المطلق، هذه الروح لدى هيجل تتمثل في تجليات الفكر وتمظهراته، كفكرة شاملة أزلية الوجود ومحضة التحقق، ولهذا تعتبر الظواهر الروحية والطبيعية على الحد سواء مجرد انعكاس للعقل الخالص، الذي يحقق ذاته في التاريخ وفي الطبيعة، وباختصار " فان العقل حسب هيجل هو جملة الكون نفسها التي تحدد في المقولات المنطقية، (...) وهذا يعني ان عملية تطور الفكر نفسها في انعكاساتها المطلقة، هي احدى متطلبات ملحمة الفلسفة، وقد اعتبر هيجل تطور تاريخ الفلسفة هو تحسنا لشكلها ومحتواها النهائي، وهو المحتوى الذي يعبر عن الوجود نفسه" (عبدالرحمن، 1984، صفحة 1188) ما يؤكد ان الواقع له صبغة عقلية

خالصة، باعتباره مضمون الوعي المطلق ضمن صيرورته الجدلية التي تتخذ من اشكال الطبيعة والتاريخ ميدانا حيا لتحقيق هويتها العاقلة.

ولذلك يعتبر الديالكتيك القانون الثابت في ماهية الوعي الخالص، اي تلك الحركة الديناميكية التي تجد في نقائضها الذاتية والموضوعية مادة لتغيرها، وصولا الى فكرة الروح المطلق بوصفه فكرا محضا مضمونه الحق المطلق، والذي يعتبر المرحلة الاخيرة من المراحل الفكرية التي يرتقي في مسارها الديالكتيكي الوعي الذاتي ارتقاءا سلبيا، وبالتالي يتبلور تصور هيجل للفكر تصورا محكوما بمنطق الحركة والصيرورة الدوومة، على عكس كانط الذي قدم تصورا سناتيكيا للعقل، وذلك ما يؤكد تجذر الذات في الذهنية الغربية، التي اخذت صيغا متعددة إلا أنها تنصب في نهاية المطاف ضمن الفلسفات النسقية العقلانية، فالانا المطلقة هي تلك البداية الصريحة واليقينية لكل نسق فلسفي، والتي طالما فرضت ذاتها كسلسلة من الاساليب التأملية المحضة والتي انتجت وجودا ميتافيزيقيا قوامه الحضور بوصفه مصدرا وحيدا للحقائق، هذا الحضور يتجلى في الانا افكر الديكارتي التي أعلنت عن نفسها كمعادلة فكرية ثابتة ويقينية في تاريخ فلسفة الذات، والانا المتعالي الكانطي، والعقل اللامتناه الفيشتي، والروح المطلق الهيجلي، ما انتج تمركزا عقليا احاديا هرميا صلبا مداره الذات الغربية.

### 3. من الذات الكلاسيكية المنغلقة الى الانفتاح النقدي(خلخلة الاساس الذاتي المطلق للحدثا وتدشين العوالم اللامتركزة):

#### 1.3 الفينومينولوجيا الترنستندالية (تعميق ازمات الذات الديكارتية وتجديد الفلسفة )

نستطيع أن نعثر على تلك الفلسفات الجديدة التي رفضت الذات الغربية في مفهوم الابستيمي لدى ميشال فوكو، والفلسفة بلا مركز لدى ديريدا، وإن ساهمت الفينومينولوجيا والبيئوية بشكل عام في تدعيم هذه الفلسفات الوثوقية لإزاحة الذات عن المركز فيصبح بذلك العالم نسقا يتسم بالسيولة المطلقة، بعيدا عن كل القيم والثوابت والمطلقات، ولقد كشف هسرل Edmund Husserl في مقدمة كتابه تأملات ديكارتية بوضوح عن الازمة التي شهدتها الفلسفة نفسها في بداية القرن العشرين، بعد أن إتبعت ديكارت في دعوته الذاتية للرجوع إلى الانا المفكرة الخالصة، كمصدر يقيني للحقيقة، وكأساس مطلق وثابت في الفلسفة، وعلى هذا الاساس الذاتي شديد ديكارت نمط فلسفي جديد، شهد انعطافا حاسما من النزعة الموضوعية الى النزعة الذاتية المتعالية، ليشخص هسرل أزمات الحدثا انطلاقا من الذاتية الديكارتية، التي جعلت الوعي الغربي سجين الذات المتعالية ذلك ما جعل هسرل "يتبنى الطريق الفينومينولوجي باعتباره علما صارما وكليا، فهسرل يرى أن مهمة الفلسفة هي إنشاء معرفة صارمة ومتحررة جذريا من كل الاراء والاحكام المسبقة" (ايدموند، 2008، صفحة 16) ويرد ف هذا القول



بخطابه أيضا : "ان الوعي القصدي يحمل في ذاته الارتباط بالموضوع" (إيدموند، 2008، صفحة 16)، لذلك كانت البديهية التي انطلق منها هسرل تتمثل في "ان الشعور هو شعور بشيء ما"، وفي ذلك تحول كفي عن طروحات سابقه الكلاسيكية، الذين حصروا المعارف في مجرد محض الشعور، فالشعور القصدي عند هسرل يمثل الحس المباشر للأشياء، والاحالة المتبادلة بين الذات والمواضيع التي تقابها، وهنا حقق هسرل تجاوزا للذات الديكارتيّة المتعالية التي تفترض تلك الثنائية من الذات والموضوع، وتفترض ذلك التعالي للذات على حساب الموضوع، فالذات التي تتناول الوعي في حالاته الخالصة، أصبحت مع هسرل تحمل قابلية لامكانية اخضاعها للدراسة القصدية، باعتبار هذه الاخيرة تعالفا بين الذات والموضوع، وبالتالي اعادة الاعتبار للظواهر الخارجية التي تم اختزلها في المحتوى الذاتي للعقل المحض، هذا الاتصال القصدي المستمر للوعي بالمواضيع الخارجية هو ما يعطي فاعلية ونشاط للوعي الذي عرف جمودا وتحجرا فكريا في الاطروحات الكلاسيكية السابقة، وبالتالي لم يبق الوعي سجين تلك الصروح الذاتية المتعالية، بل اصبح مرتبطا بدينامية القصد وفعله المحايث، ذلك ما اضى على الوعي طابع التجديد والفاعلية المستمرة بعد ما كان سجين الذات الحديثة، فعن طريق تعليق الحكم (الايوخوا) والوضع بين قوسين، يرى "هسرل" انه ثمة عودة مستمرة لفعل القصد صوب المواضيع لاستكناه الجوهر المغيب فيها، الذي همشته فلسفات الوعي وانكرت وجود اي حقيقة يمكن أن يكون مستقل عن الذات العاقلة.

### 2.3 البنوية فلسفة موت وافول الذات

جاءت البنوية مباشرة من السنية دي سوسير **Ferdinand De Saussure** الذي أكد أن اللغات مفعمة بالاختلافات المتميزة ، ولقد إنبثق عن اللغويات البنوية السويسرية أول دافع منهجي " لمعالجة غيرها من نظم الظواهر وكأنها لغات ظواهر، (...) والتي إستندت بطبيعة الحال على الاختلاف، وقوضت فكرة النفس باعتبارها ذاتا او وعيا يمكن ان يكون مصدرا للمعنى" (جون، 1990، صفحة 61) وذلك ما اكده ميشال فوكو قائلا: "أزاحت بحوث التحليل النفسي وعلم اللغويات والانثربولوجيا البنوية الذات من المركز، بالنسبة لقوانين رغبتها واشكال لغتها، وأثار خطابها الاسطوري او الخيالي (...) فالأفكار التي ستشهد بشكل من الاشكال بأسبقيه الاختلاف في اي حقل من هذه الحقول، جعلت الذات شيئا يتشكل بتفاعل النظم وليس شيئا يحتكم الى الوعي" (جون، 1990، صفحة 61)، فمقولة الذات التي كانت مرتكزا اساسيا قام عليه مشروع التحديث الغربي، قد شهدت انهيارا اثر انهيار اساسها العقلاني الثابت امام ثلاث ضربات عنيفة، والتي اظهرت بفعل رجاتها العنيفة العناصر المظمورة التي تتحكم فيها، مما جعل السيادة تسقط عن الذات الحديثة، فقد كانت بحوث

التحليل النفسي مع فرويد، الذي قدم تأويلا ارتيابيا للذات الغربية صدمة حقيقية كسرت غرور الانسان، الذي مضى طويلا بنقته المفرطة في عقله الى ابعد الحدود، حيث توسل فرويد في ذلك النهج الاركيولوجي من اجل الحفر في اغوار الحياه النفسية، لتفكيك رمزيته التي ادعت العقلانية، واطهار أن الشطر الاكبر من سلوكيات الانسان مرده الى عناصر لا شعورية كثيرا ما تنفلت من قبضة الذات الواعية ورقابته، لذلك تبين ان الوعي مع فرويد ليس اهلا للثقة المطلقة، لانه في جملته قناع يخفي الزيف والوهم، وغافل عن نفسه، اما عن اللغويات البنوية فقد اكدت بأن الانسان ما هو الا كينونة لغوية، اي انه نتاج علاقة تصنعها اللغة وليس سيدها، واما عن الانثربولوجيا البنوية فقد اكدت بأن الانسان له تاريخ عريق يجله، وهو الذي يتحكم فيه، اذ نجد على سبيل المثال ليفي شتراوس قد قدم في هذا الصدد من خلال نقده للمركزية الغربية، التي تجسدها عقلانية فكرها، في مقابل لا عقلانية افكار الثقافات الاخرى، تحت تأثير سوسيولوجيا اميل دوركايم واثولوجيا فرانز، وجود نمط بنيوي عالمي للعقل يرتبط في اساسه باللغة، بغض النظر عن تلك النزعات العرقية التي ينتمي اليها العقل والتي تتحكم فيه دون ان يعي ذلك، ادى ذلك الى زحزحة مركزية الذات الغربية، والاستغناء عن فلسفة الكوجيتو كما تصورها ديكارت،

فمفهوم البنية تحمل في ثناياها تلك الرغبة العميقة في الاعلان عن موت فلسفة الانسان، وذلك ما اكده روجي غارودي من خلال قوله: "وبالفعل ان المقولة الاساسية في المنظور البنيوي ليست مقولة الكينونة بل مقولة العلاقة، والاطروحة المركزية للبنوية هي توكيد اسبقية العلاقة على الكينونة واولوية الكل على الاجزاء " (روجييه، 2007، صفحة 13) فالذات التي تفرض المثل الوهمية للوجود الثابت، ما هي في الواقع الا مجرد قناع او خرافة او وضع لغوي، ومن تحت الرداء النيتشوي خرج ليفي شتراوس والتوسير وفوكو وديريدا الذين شنوا هجوما عنيفا على أكاذيب النزعة الهيومانية الغربية "قالبنيوية ترى ان هدفها ليس اعادة تشييد الذات وانما تفكيكها، وتوضيح ان الذات مجرد كلمة في لغة او بنية تتجاوز الذات وتحدث من خلالها"، (عبدالوهاب، 2006، صفحة 118) وقد بلغ هذا الفكر البنيوي كتيار أعلن عن ذاته عهدا جديدا انذر بموت الانسان، إلى ذروته مع "فوكو" الذي اكد ان الذات ما هي الا حفرة من حفريات الماضي، ووهم من الاوهام التي اخترعتها الهيومانية الغربية.

### 3.3 "بول ريكور" Paul Ricoeur وارث الكوجيتو المجروح

مما لا شك فيه أن تأثر الفيلسوف الفرنسي بول ريكور بمعلمي الشك والريبة واضح وجلي في قراءته الارتيابية، ذلك أن ما قام به اساتذة الشك والارتياب: "ماركس"، "نيتشه"، "فرويد" يندرج ضمن اطار بعث تأويلات

إرتيابية تلتقي بذلك الشرح الابدستيمولوجي العميق الذي أحدثته داخل مقولة الذات والتي خلفت تصدعات اخترقت وثوقية فلسفات الذات، عندما اظهرت تلك المغيبات التي تقف وراء الواجهة الفردية للذات العاقلة، والتي اكدت بمجرد اعادة الاعتبار لها، ان هذه الذات ماهي الا مجرد خرافة او توليفة ايدولوجية، ليس لها اي وجود حقيقي، وبالتالي كان لزاما الاعلان عن نهايتها وافول تلك الحقائق الذاتية المترتبة عنها، ذلك ان الرغبة في تطهير كل الانساق الفلسفية من القيم، والثوابت، والمطلقات اصبح ضرورة ملحة، "وهذا ما يوضحه ريكور قائلاً: لقد قام ثلاثتهم بادئ ذي بدء بالهجوم على الوهم نفسه، انهم هاجموا وعي الذات ويعد هذا الوهم ثمرة لأول نصر فبول ريكور يعترف تحت تأثير فرويد "بوجود اللاوعي الذي يعبر عن نفسه كتصويب نقدي لفلسفات الوعي كما تصورهما ديكرت، يقول ريكور في هذا الصدد: واني سأقول ان لهذا النقد الواقعي طموحا يتجلى في تفكيك الكوجيتو الكاذب، وبالتدريب على تخريب اوثان الكوجيتو، (...) واما النرجسية فهي تأتي لكي تملأ الحقيقة الشكلية لأننا افكر انا اكون، تملأها بوهم واقعي" (بول، 2005، صفحة 288)، اتضح أن فلسفات الوعي ما هي الا وثن يتغذى بنرجسيته المتعالية التي تستمد فاعليتها حسب فرويد بتلك العقد الجنسية، فاستحضار اللاوعي وتفكيك شيفراته، يحيلنا على تلك المناطق المعتمة حيث يسكن الكبت والعقد، وذلك ما يعبر عن تأزم الوعي الحديث، لذلك يجب تجاوز هذا الوعي الزائف ضمن الممارسة التأويلية لريكور بغية العثور عن ذلك الفهم الحقيقي الذي يحيلنا على الذات الفاعلة، والتي سيكون لها دور آخر في تدمير الذات الحديثة كارادة عاقلة، لذلك يواصل ريكور انفتاحه على الفلسفات التأملية من منظور ارتيابي، من اجل تغييب الذات المتعالية، وتحريك شكلها الثابت، للانفتاح على الواقعي والمحايث، فالاننا لا يمكنها ان تفكر بمعزل عن العالم اي عن الاخر، وفي ضوء ذلك يفهم قول ريكور: "وهكذا استطيع ان افهم تأمليا ضرورة التخلي عن الوعي وادماج الظاهرانية

المضادة، التي هي الفرويدية في فلسفة الذات، وبالفعل فان ضرورة هذا الابتعاد عن كل وعي مباشر هو الذي يبرر المفاهيم الاكثر واقعية، (...) وهكذا فان قراءة فرويد تصبح هي نفسها مغامرة من مغامرات التفكير، وما ينتج عن هذه المغامرة هو كوجيتو مجروح" (بول، 2005، صفحة 288) ولعل الوسيلة الانجح لتضميد جروح الكوجيتو التي تعمقت بفعل تلك التأويلات الارتيابية التي مضت مساعيها، في استنكاه ذلك الجوهر المغيب في صميم الوجود الانطولوجي بفعل تمركز ميتافيزيقا الذات -التي كانت تعبر عن اقضاء ونسيان الاخر وتهميشه-، هو الانفتاح على فضاء الغيرية، فهدم مركزية الذات من خلال تشخيص امراض فكر غربي متمركز حول ذاته الذي مضى في نسيانه المرضي للوجود الغيري، هو اعادة الاعتبار لانطولوجيا الاخر بوصفه كينونة مختلفة عن

الوجود الذاتي، فكان زعزعة اركان هذا الاخير انفتاح هيرمينوطيقي على الغياب مكن الاختلاف والتمايز، اي انفتاح على الغربية.

### 4.3 "فرنسوا ليوتار" Francois Lyotard وانهيار الكليانات العقلانية

ينتمي "فرنسوا ليوتار" إلى عهد رغب مفكروه بإجراء قراءة نقدية لكافة التصورات الفكرية التي كانت سائدة في الازمنة الحديثة، والتي تحولت بفعل الزمن الخطي الغربي، الى خطابات سلطوية تدعي امتلاك الحقيقة، فكان الاعلان عن نهاية هذه الخطابات الاطلاقية، هو المصير الحتمي الذي حمل في ثناياه ميعاد لميلاد لحظة جديدة في تاريخ الفكر الغربي، وإنهاء فكري لما كان سلطة سائدة فهي "لحظة أقدمت على تغيير القوالب الجاهزة، والقواعد والقوانين والانظمة، التي تبني وفقها الخطابات الفكرية والفنية والعلمية، وهو ما يعرف أيضا بالسرديات الكبرى، وهي حكايات تروي الصيرورة التي سيقطعها الوجود الانساني" (فرنسوا، 1994، صفحة 23)، تلك الحكايات التي تتادي بنهاية التاريخ وفقا للزمن الخطي للمعنى والحقيقة، ذلك ما يتجسد في جدلية الروح الهيجلية على سبيل المثال، هذه العقلانيات الحديثة النسقية كانت تشكل العدو الرئيسي للواقعية والتي شن عليها ليوتار هجوما عنيفا، وبالتالي كان مناهضا لاقامة تلك الخطابات " المضخمة التي تصير اسيجة دغماتية توقع الافراد في بربرية قاتلة، فكان عليه لزاما الدعوة إلى إلغاء كل ما له صلة بالكليانات المعقلنة" (فرنسوا، 1994، صفحة 23)، خاصة النسق الهيجلي الذي ارتأى فيه ليوتار مصدرا لكل الشرور والالام التي مرت بها البشرية، كونه أسس للكليانات وهو ما يعبر عن ذلك الانسداد الذي بلغه الغرب، فالفكر الفلسفي " لدى ليوتار يتأسس من منطلق فعل وحركة بعيدا عن كل جوهر أو ماهية، مثلما كان متجسدا لدى الفلسفات التقليدية" (عبود، 2013، صفحة 1151)، من هنا أعلن ليوتار عن تلك العدمية الايجابية التي حملت في ذاتها افول السرديات الكبرى التي تميزت بذلك

الطابع الاقصائي والمهمش لكافة انواع الخطابات المغايرة لها، التي فشلت في تأويل الانسان والعالم، معيدا الاعتبار لفلسفة الفعل - التي ستصبح بمثابة المختلف الذي استبعده تمركز العقل الذاتي-، التي تمتاز بالراهنية والبراغماتية، الخالية من كل بعد تنظيري او شمولي، يحمل في ذاته امكانية التحول الى انظمة توليتارية تدميرية.

#### 4. خاتمة

خلص البحث الى جملة نقاط اساسية:

أن مقولة الكينونة التي جسدها الذات في ثوبها الاوروبي والتي كانت الاكثر تجذرا وحضورا في الذهنية الغربية، كبداية وثيقة لكل نسق فلسفي، أصبحت مهددة بالزوال في الخطاب الغربي المعاصر، فتلك الشكليات التأملية الناتجة عن خطاب كلاسيكي متحيز لمحض الشعور الذي فرض وجوده الذاتي كمصدر للحقيقة واليقين، وكحدث عقلي رسخته الرؤية الذاتية الديكارتية التي أعلنت عن نفسها كجوهر مفكر وقضية ثابتة وحقيقية في الفكر الغربي، "يؤول تحيزا سابق عليه، في هذه السلسلة من التقاليد الكلاسيكية"، ما يحيلنا على فعل التكلم عن "الكوجيتو السقراطي(اعرف نفسك بنفسك)"، وعن الكوجيتو الكانطي " (الانا أفكر يجب أن تكون قادرة على مصاحبة كل تمثيلات)" والروح المطلق الهيجلي، وهو ما يجسد ذلك التعسف الفكري أحادي الاتجاه الذي ترتب عن المخيال الغربي، والذي انتج تمركزا عقليا قوامه الحضور، هذا الاخير الذي يتغذى بمركزيات عرقية نرجسية انتصرت لذاتها الغربية، ما ادى بها الى الانسداد والانغلاق على ذاتها، ذلك ما فتح المجال أمام تأويلات ارتيائية تنبأت بانهياب فلسفات الوعي، بفعل تلك الرجاء العنيفة التي مست اساسها الثابت، من أجل تفجير ميتافيزيقا الذات وتحريك شكلها المتعالي، للانفتاح على الاخر، كان هذا المسعى الهيرمينوطيقي فهما إرتيابيا مزق نسيج الوحدة الذاتية وفلسفاتها الواعية هذه الاخيرة التي اعتبرها، ريكور تحت تأثير فرويد بأنها مجرد وثن وكذبة مشبعة بأبعادها النرجسية، التي تستمد فاعليتها من تلك العقد الجنسية، فاستحضار اللاوعي وتفكيك شيفرته، التي تحيلنا على تلك المناطق المعتمنة حيث يسكن الكبت والعقد، ما هو الا محل أزمات الوعي الحديث، لذلك يجب تجاوز هذا الوعي الزائف ضمن الممارسة التأويلية بغية العثور عن ذلك الفهم الحقيقي الذي يحيلنا على فعل الانفتاح على الذات الحقيقية، التي لا يمكن ان تمارس فاعليتها بمعزل عن الاخر وعن الواقع كشرطين وجوديين ضروريين .

فجل ما قامت به القراءات الفلسفية المعاصرة هو إحداث التصدع الابستمولوجي داخل مقولة الذات، والتي مزقت وثوقية فلسفات الذات الكاذبة، حينما أظهرت أن الذات ماهي إلا حفرة من حفريات الماضي، ووهم من الاوهام التي اخترعتها الهيومانية الغربية، لتتعمق بهذه القراءات الشكية جروح فلسفات الكوجيتو، ويكفي الحفر والتقيب في الوجود الانساني الغابر وشرطيته التاريخية، لتنتبين ان ميتافيزيقا الذات وخطابها المتعالي كان دوما ما يعبر عن اعادة انتاج مركزيتها، في مقابل اعادة انتاج هامشية الاخر، فهذا التمركز هو نسيان مرضي لتعدد الذات المختلفة، واقصائها باعتبارها ذواتا مغايرة للذات الغربية، لذلك كان السبيل للخروج والانعتاق من الانسداد

الذي بلغه الفكر الغربي الاحادي، هو مدى الانفتاح على فضاء الغربية، فزعزعة أركان التمركز هو انفتاح لفهم جديد يعيد الاعتبار للغياب كنه الاختلاف والتمايز.

## 5. قائمة المراجع:

1. امين، عثمان. (1967). رواد المثالية في الفلسفة الغربية، دار المعارف للنشر والتوزيع، القاهرة.
2. ابراهيم، عبد الله. (1997). المركزية الغربية اشكالية التكون والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، بيروت لبنان.
3. ابراهيم، زكريا. (1972). كانت ابو الفلسفة النقدية، دار مصر للطباعة والنشر، القاهرة.
4. المسيري، عبد الوهاب. (2006). دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدولية للنشر، القاهرة.
5. المحمداوي، علي عبود. (2013). الفلسفة الغربية المعاصرة صناعة العقل الغربي من مركزية الحداثة الى التشفير المزدوج، منشورات الاختلاف، الرباط.
6. بدوي، عبد الرحمن. (1984). الموسوعة الفلسفية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان.
7. جعفر، عبد الوهاب. (2003). اضواء على الفلسفة الديكارتية، كلية الاداب جامعة الاسكندرية، مصر.
8. حامد الشين، يوسف. (1994). الفلسفة المثالية قراءة جديدة لنشأتها وتطورها وغاياتها، منشورات جامعة قاريونس. بنغازي
9. ديكارت، رونييه. (1988). تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الاولى، منشورات عويدات، بيروت باريس.
10. ديكارت، رونييه. (2008). البحث عن الحقيقة بواسطة النور الطبيعي، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، القاهرة.

- <sup>11</sup>. ريكور، بول. (2005). صراع التأويلات دراسات هيرمينوطيقية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان.
- <sup>12</sup>. ستروك، جون. (1990). البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس الى ديريدا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب للنشر، الكويت.
- <sup>13</sup>. غارودي، روجييه. (2007). البنيوية فلسفة موت الانسان، دار الطليعة للنشر، بيروت لبنان.
- <sup>14</sup>. كامل فؤاد. (دون. سنة). الفلسفة الفرنسية من ديكارث الى سارتر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.
- <sup>15</sup>. كانط ايمانويل. (دون. سنة). نقد العقل المحض، مركز الانماء القومي للنشر والتوزيع، بيروت لبنان.
- <sup>16</sup>. محمد محمد، عويضة كامل. (1993). ديكارث رائد الفلسفة في العصر الحديث، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
- <sup>17</sup>. مصطفى ابراهيم ابراهيم، (2000)، الفلسفة الحديثة من ديكارث الى هيوم، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر، القاهرة.
- <sup>18</sup>. ليوتار فرنسوا، (1994)، الوضع ما بعد الحداثي، البعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون قسم الترجمة، القاهرة.
- <sup>19</sup>. هسرل ايدموند، (2008) ازمة العلوم الاوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية، مركز دراسات الوحدة العربية للنشر والتوزيع، بيروت لبنان.